العلم الصحيح هو الذي يربي الملكات ويهذب النفوس فلا يتخدم صاحبه علمه اداة للغلبة بالباطل والادلال على الاقران والذهاب بفضل الشهرة والمحمدة الزائلة والنبيح والتنطس فنح اللهم بفضلك هذه الديار شيئاً من هذا العلم وكثر فيها سواد اهله بمنك وحسن تسديدك

صفحة من تأريخ مصر

معربة عن مجلة الاكونوميست اوربين الفرنسوية للمسيو ادمون تيري

يبتدئ تاريخ مصر الحديث من عهد محمد علي مؤسس الامارة الخديوية الحاضرة ومحمد علي هذا ولد في الروم ايلي وهو رجل شجاعة وفرط ذكاء سعى فوفق الى ان ينصب والياً على القاهرة وحاكماً على القطر المصري سنة ١٨٠٥ وذلك بمساعدة المماليك الذين ابادهم بعد ست سنين من استلامه ازمة الحكم عند ما طمح هؤلاء النبلاء بعد ان كانوا عبيداً واجناداً . وصوفين بحب السلب والنزوع الى الفتنة في تهديد قوته .

بلغت مصر على عهد قدماء ملوك المماليك التركمان والجراكسة (١٢٥٤-١٥١٧) ارقى درجات الحضارة الشرقية ولكن كان الشعب يؤدي المغارم بطريقة وحشية قاسية ولم يكن حكمهم الذي دام ٢٦٣ سنة سوى سلسلة طويلة من الحروب الاهلية والمؤامرات وانقلاب في احوال القصور وجرائم وجنايات يباع فيها الدم بيع السماح . حتى ان السلطان سليم الاول العثماني لما استولى على مصر سنة ١٥١٧ رآها وقد استحكمت فيها الفوضى المطلقة فجعلتها خراباً يباباً

ولم تكن البلاد على عهد الفتح العثماني (١٧٩٨ — ١٥١٧) اسعد منها على عهد المماليك الذين عادوا بعد قليل واسترجعوا نفوذهم القديم واليك ما قاله

نابوليون الاول في وصف هذا الدور الذي دام ٢٨١ سنة وذلك نقلاً عن مفكراته على الحملة المصرية :

ابقى السلطان سليم اربعين الف جندي حامية تحفظ البلاد التي افتتحها وقسمهم الى سبعة فيالق وكان الستة منها مؤلفة من العثمانيين والسابعة مؤلفة من المماليك . وجمع لذلك كل من سلم من ايدي هؤلاء . وعهد بادارة البلاد لباشا واربعة وعشرين بيكاً ولجماعة من الافندية والى ديوانين وكان احد هؤلاء البكوات الاربع والعشرين قائمقام الباشا ونائبه ولقد كثر عدد فيالق المماليك وهو مؤلف من اجمل الرجال واشجعهم واخذت الفيالق الستة بالضعف ونزل عددهم بعد قليل الى سبعة آلاف جندي على حين بلغ المماليك وحدهم زهاء ستة آلاف . وفي سنة ١٦٦٦ اخذت الفوضى يدب دبيبها في كل رجا وزحزح العثمانيون عن القلاع والمعاقل فاستولى المماليك على كل شيء ودعي رئيسهم شيخ البلد . ثم اخذ القوم ينفرون من الباشا ويحتقرونه فنادى علي بك شيخ البلد سنة ١٧٦٧ بالاستقلال والاستئثار بالسلطة وضرب السكة باسمه واستولى على مكة وحارب سورية واتحد مع الروس وغدا البكوات كلهم عندئذ من المماليك . وفي سنة ١٧٩٨ اصبح لكل بك من هؤلاء البكوات الاربع والعشرين قصره الخاص به وفيه من الحاشية والمعاشية ما يختلف قلة وكثرة وكان عند اضعفهم بأساً مائتا مملوك وكان لمراد بك الف ومائتا مملوك بحيث كان هؤلاء الاربع والعشرون بيكاً يؤلفون جمهورية تخضع لاعظمهم نفوذاً فيهم ويتقاسمون بينهم الاموال ويتوزعون المعاقل . وقد قدر عدد المماليك نساء ورجالاً واطفالاً سنة ١٧٩٨ بخمسين الف نسمة يخرجون منهم اثني عشر الف فارس اه

اهلك الجيش الفرنسوي في حرب الاهرام في يوليو سنة ١٧٩٨ سبعة الاف مملوك واباد محمد علي سنة ١٨١١ ما بقي منهم . ثم ان الباب العالي صدق على

ولاية محمد علي على مصر لقاء سبعة ملايين من الفرنكات يدفعها خراجا في السنة حاول ان يعيد الى القطر ما فقد من بهائه القديم فوطد اسباب الامن في البلاد ونظم له جيشاً قوي الشكيمة .

وبينا كان ولدا محمد علي طوسون وابراهيم يستأصلان شأفة الوهابيين سنة ١٨١٨ كان سليمان باشا القبطودان يستولي على النوبة وسنار وكردوفان التي كانت أُضيفت الى امارة مصر باسم السودان المصري وخرطوم عاصمتها سنتي ١٨٢١ و١٨٢٢ وينجدان السلطان محمود العثماني في قتال اليونان المتمردين سنتي ١٨٢٤ و١٨٢٩ ثم يغيران بعد ذلك بسنتين على سورية والاناضول انتقاماً من السلطان على عدم اعترافه بالجميل بينا كان ابنا محمد علي يقومان بهذه الاعمال كان محمد علي والدهما يتقدم الى فرنسا وكان يجبها كثيراً ان تبعث اليه بمهندسين وكيماويين ومعماريين وميكانيكيين وغيرهم يحفرون له الترع ويصلحون سدود النيل القديمة ويقيمون قناطر حديثة ويعمرون الاطيان القابلة للزراعة في الدلتا والصعيد ويدخل اليها المزروعات الجديدة وينشيء المعامل ليفجح في توفير الغلات والتجارة الوطنية .

ولكن محمد علي لم يحسب حساب العمل وما يقتضي له في هذا التبديل الاقتصادي الذي كان يرغب فيه فأباد الفلاحين على نحو ما صنع المماليك بما حملهم اياه من السخرة والضرائب وسلبهم اراضيهم التي جعلها الا قليلا ملكاً خاصاً له وترك للخزانة الاستئثار بالتجارة الخارجية .

على ان ما بذله هذا الوالي لم يكن متناسباً مع قوة البلاد المساعدة ولم يحدث عنها لسوء الطالع النتائج التي كان يتوقعها فلم تلبث تلك المصانع ومعامل القطن والسكر التي انشئت بالاموال الطائلة في جميع انحاء مدن القطر ان تداعت اركانها عقيب ما قام بنيانها وذلك لسوء ادارتها ولقلة استكمالها اسباب الجودة

بحيث ان محمد علي لما أُصيب بمرض في عقله وتخلى عن الادارة لبكر اولاده ابراهيم (١٨٤٨) كان الشعب المصري في بؤسه وشقائه على نحو ما كان في آخر حكم المماليك .

خالف ابراهيم اباه بموجب وفاق تم عقده بين محمد علي والباب العالي وصادقت عليه الدول العظمى (١٨٤١) اللائي ضمن لعزيز مصر ان تكون له ولاحفاده الذكور من بعده ملكا ابديا يتوارثها بكر الاولاد مع حفظ سيادة الباب العالي على القطر . ولكن لم تطل مدة حكم ابراهيم اكثر من بضعة اشهر وخلفه ابن اخيه عباس باشا (١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨) وكانت ادارته للبلاد الى الضعف .

تولى عباس باشا سنة ١٨٥٤ فخلفه سعيد باشا رابع اولاد محمد علي . يقول المسيو رافيس في بحث له جليل في مصر انه كان ذا حظ من الذكاء الباعث على العمل والحامل على حمل اسباب الحضارة على نحو ما كان لوالده مع ما امتاز به من التهذيب الاوربي الذي لقنه احسن تلقين فاتسعت مداركه ولذلك اتم اصلاحات والده وتوسع فيها . فالغى بعد سنتين النخاسة والجمارك الداخلية والاحتكار واطلق للفلاح حريته الشخصية وحرية التملك ووفى ديون القطر القديمة وهو الذي انجز قناطر النيل ورخص للمسيو دي لسبس صديق صباه ان يخرق ترعة السويس وهو اول من جعل للامير راتبا واقام خزينة خاصة .

مات سعيد باشا سنة ١٨٦٣ وخلفه اسمعيل بن ابراهيم فنال هذا من الباب العالي (١٨٦٦) حق الارث في الامارة لاولاده والغاه حق بكر الاولاد فيها في فروع القرابة غير الفرعية ونال لقب خديوي فجاء ذكره في مجموعة القوانين العثمانية بعد ذكر اسم السلطان مباشرة . ولقد حرص اسماعيل على ادخال التنظيمات الجديدة ولكنه كان منفاقا متلافا للمال فساق البلاد المصرية بادارته المحزنة الى

الافلاس واضعاف الاستقلال الوطني الذي كان حلم باسترجاعه ·

قال ادمون ابو في كتابه العجيب المسمى «الفلاح» الذي نشره قبيل الاحتفال بافتتاح ترعة السويس بعد ان وصف جمال الصنعة في مساجد القاهرة ووصف عجائب الهندسة الدقيقة التي دعوها بدون مسوغ قبور الخلفاء وقام القوم بصنعها بحيث تعجز جميع الايدي العاملة في مصر عن مضاهاتها ما نصه :

عهد جميع هذه المصانع الصالحة الجميلة كمهد امثالها عندنا نقرأ فيه الكآبة والتشويش ولعمري كيف تأتى لاولئك القدماء ان ينشئوا أعاجيب من المصانع والمعاهد يتعذر على مصر الحديثة اصلاحها ؟ يتداعى كل شيء ويبيد فيذهب غير مأسوف عليه هباءً منثوراً ولا يحاول الاحياء اليوم ان يدعموا ما وهى من تلك الخرائب الفخيمة · ثم اهل اخلاص في اعمالهم لم تضعف نفوسهم كما ضعفت نفوسنا منذ اقمنا بناء بيعنا الكبرى على الطرز الغوطي · ولعمري كيف جوز اولئك المؤمنون ان يتركوا تلك المصانع الدينية تتداعى اركانها على حين نحن بذلنا كل مرتخص وغال لصيانتها على الحادثنا ·

أنشئت المصانع العامة في جميع الممالك بفضل المعاونة الحقيقية والشخصية وقامت بفضلات ماتنفقه الامة في سبيل حاجياتها · نرى المصريين الماثلين امامنا يصرفون اقل مايمكن صرفه و يقومون على مايظهر لي باعظم الاعمال الجسدية وان لم يكادوا يقومون بالانفاق على انفسهم وتأدية الخراج للحكومة · ليت شعري هل فسدت الارض ام سكانها ام حكومتها ام يتحتم علينا ان نعتقد بان استبداد المماليك فتح هوة يتعذر ردمها اه

كتبت هذه السطور منذ زهاء نصف قرن بعد ابادة المماليك المتأخرين فثبت بها ان محمداً علياً واخلافه قلما عنوا بتحسين حالة هذا الشعب الخاضع العامل

الذي لم يعمل قط الا للغرباء ولم ينله نفع من كده واليك ما قاله الاستاذ اليزه ركلو بعد ادمون ابو بعشرين سنة :

ان النقوش الناتئة في المصانع المصرية تمثل هذا الشعب بانه كان منذ ثلاثة آلاف سنة كما هو اليوم يحني رأسه تحت ضربات السياط . ولقد كان الفلاح المصري ابداً مظلوما مرهقاً لاقدرة له على الانتقال كما ينتقل البدوي الرحالة وليس في سهل الدلتا العظيم المنبسط ولا في وادي النيل الضيق المضطرب مكان يسعه ان يحاول الالتجاء اليه ليكون فيه بأمن ولذلك كان عرضة للشقاء لامستقبل له ولا امل يرجو نيله ومع هذا تراه يحب مسقط رأسه حبا جماً واذا طرحته النوى مطارحها وابعدته عن ضفاف نهره المحبوب تعروه الكآبة ويموت معذباً بالإيب اي مرض فرقة الاوطان اه .

عود الى موضوعنا — فقد فتحت ترعة السويس في نوفمبر سنة ١٨٦٧ ثم اتخذ اسماعيل سياسة التغلب التي افلح فيها جدا ووسع حدود مصر الى البحيرات العظمى في افريقية الوسطى سنتي ١٨٧٠ و١٨٧٦ وصادق له السلطان على نصف استقلال الخديوية فيما يتعلق بالباب العالي ولكن اسماعيل انشأ في خلال عشر سنين من حكمه يسرف ويتلف فمد عهده عهد اسراف مالي شرع يستدين من فرنسا وانكلترا حتى اقترض ٢٥٠٠ مليون فرنك بشروط كانت من الفداحة بحيث اصبح الافلاس لا مناص من الوقوع فيه .

نعم حدث ذلك بالفعل فرضي اسماعيل سنة ١٨٧٦ بقبول المراقبة الاجنبية على المالية المصرية و بعد انقضاء ثلاث سنين على هذا ومحاولة اعادة النظام الاداري الى نصابه الاول عين في الوزارة المصرية اثنان من المراقبين احدهما انكليزي المستر ريفرس ويلسون والاخر فرنسوي المسيو دي بلنيير سنة ١٨٧٩ وعندما نشأ

عن ذلك ما هو معلوم من المشاكل بين الادارة المصرية ووكلاء الدائنين وان وقع الاستحسان على المراقبة الانكليزية الفرنسوية في جميع ما يختص بالمالية المصرية .

جاء في كتاب المسألة المصريه الذي نشر حديثاً كلام للسيوفريسنيه (احد وزراء فرنسا) حكم فيه الحكم التالي على عزل اسماعيل وحلل مؤلف هذا الكتاب الممتع التقلبات المنوعة في السياسة الفرنسوية بمصر منذ حملة بونابرت الى ايامنا قال الوزير:

وهكذا انتهت ايام امير كان في مكنته ان يكون حظه غير متمم له فقد كانت له على نقائصه الكبيرة صفات محمودة فان كان محتالاً موسوساً مهوساً مفرطاً في العجب مسرفاً محباً للعظمة فقد كان ايضاً صاحب سلطة وذكاء في تعاطي الاعمال يحسن التمييز بين مصالحه المختلفة وتظهر كفاءته في حسن خدمتها . وقد دل اصلاحه القضائي وما بذله من مديد المعونة في مشروع ترعة السويس وما توفر عليه من القيام بكثير من الاعمال النافعة على انه اهل للعمل بالافكار السامية . ولو كان لفرنسا في مصر اذ ذاك معتمد حازم حاذق وثابت (١) لنالت بواسطته نفوذاً كبيراً وكان يتأتى بمعونة الدول وفي الاحوال الحرجة التي وقعت البلاد فيها ان يؤخذ بيد اسماعيل في طريق يكون الى السلامة اكثر من الطريق الذي سلكه

فقام على عرش الامارة المصرية بقيام توفيق امير مهذب سليم الطوية تام الاخلاق مقتصد ولكنه ضعيف الرأي لا نفوذ له متوسط الذكاء تتقاذفه التأثيرات المتناقضة بحيث يعجز عن التغلب على مركز حرج . ولذلك رأيت مصر في خلال ذلك عرضة الاضطراب وعدم التماسك ثم للاختلال وانتشار الحوادث اه

---

(١) كان لفرنسا في خلال السنتين والنصف التي انقضت من الاصلاح المالي سنة ١٨٧٦ الى عزل اسماعيل ثلاثة وكلاء سياسيين على حين كان اللورد كرومر في مصر منذ زهاء ثماني عشرة سنة

وعلى الجملة فقد كان من اثر الحوادث التي تلت اعادة المراقبة المالية ان راح اشياع اسماعيل يستثمرون المنائم منها فنشأ عن ذلك اضطراب شديد بين المسلمين من المصريين انتهى بثورة السودان وقيام المهدي محمد احمد يدعو الى الجهاد (اغسطس ١٨٨١) وادى الى الفتنة المشهورة في القاهرة (٩ ستمبر ١٨٨١) التي اثار ثائرها الحزب الذي سمى نفسه الحزب الوطني وكان الاميرالاي عرابي زعيمه المعروف

شيء من تاريخ الكائنات والانسان

خلق الله النور ثم الجلد ثم النبات والاشجار والاعشاب والمياه . ثم الشمس والقمر والكواكب ثم الاسماك والطيور ثم الدبابات والبهائم ثم الانسان

لا يعلم العلماء مقدار المدة التي كانت بين خلق النور وبين الجلد وبين سائر المخلوقات المتقدم ذكرها . فقد يمكن ان المراد في الايام التي ذكرها موسى اول مؤرخ ظهر على وجه الارض عصر او مدة طويلة . فانه لا يوجد كلمات في اللغة العبرانية التي كتب فيها موسى تاريخه او الاسفار الخمسة في التوراة تدل كلٌّ منها على يوم ومدة وعصر على حدتها . ولقد دلّ كلٌّ من علم طبقات الارض وعلم الفلك على ان المراد بتلك الاعصر الوف عديدة من الاعوام

بيد ان قسماً كبيراً من البشر يعلم حق العلم بان الله جلّ جلاله سلط الانسان على الكائنات وعلى هذه الطبيعة العجيبة او انه اقامه سيداً على كل ما نراه امامنا ووراءنا وفوقنا وتحتنا وحولنا من جمال هذا الكيان وبدائع هذه الخليقة التي حار في فهم اسرارها القدماء والمحدثون

آدم جد الاسرة البشرية كلمة عبرانية معناها التراب الاحمر . وحواء جدة الجنس البشري كلمة معناها ام كلّ حي . ولقد دلت الآثار القديمة في جميع قارات العالم — في آسيا وفي افريقية وفي اوربا وفي اميركا على خلق آدم وحواء . فوجدت صور منقوشة على الصخور تدل على رجل وامرأة وبيد هذه ثمر

اما موقع الفردوس الارضي الذي وجد فيه الابوان الاولان فقد اختلف فيه الاثريون ورجال البحث . فقال فريق انه كان في ما بين النهرين او في ارمينية بدليل ذكر موسى